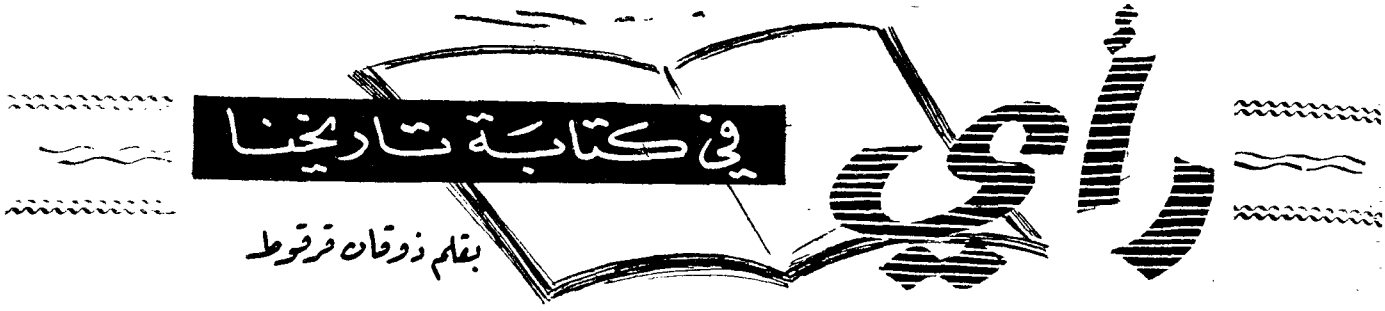

اذا كانت الحاجة الى ادب وفن وسياسة ، تزيل ما بين الشيعة والسنة والدروز والعلويين وفرق الباطنية المختلفة من حواجز عاطفية وشوائب فكرية ، ملحة الحاحا شديدا حتى تصبح تلك « الاجواء » الجزئية في البلاد العربية مصدر فن لا باعث تفرقة واستغلال ، ومبعث الهام وابداع وغنى لا سبب تفكك وانحلال واجداب .. فان الحاجة الى كتابة التاريخ العربي من جديد أشد ، الى النظر اليه نظرة عقائدية تؤمن بامكانيات المستقبل كما تؤمن بحقائق الماضي، نظرة تؤمن بان الواقع الفاسد الذي تراكمت عليه عصور من الجهل والتأخر لن تقلل من قيمة المستقبل وانما كانت ضرورية ولا بد منها حتى يعود هذاالمستقبل فيأتي – بين الامم – في المستوى الذي اتت فيه رسالات العرب في الماضي . ان العرب اشد ما يكونون اليوم – وهم في بداية تفتحهم – الى كتابة تاريخهم واحيائه في نفوسهم وقلوبهم وعقولهم . وكما يساعد الادب والفن والسياسة – في تنهيج مشترك موحد – على تقوية الاواصر وتوحيد الاهداف وزيادة المشاعر المشتركة وتنميتها ، فان توضيح التاريخ العربي بكشف المؤثرات الدخيلة عليه والبواعث السياسية والعنصرية فيه ومراميها لتفكيك الروابط العربية ، انمثل هذا العمل لا يقل فائدة عن ذلك في اعادة الاواصر بين مختلف المجتمعات العربية الاقليمية الى ترابطها الاصيل ،بل ويدفع بها الى الامام خطوات بعيدة المدى نحو اهدافها .

***

منذ زمن طويل بدأ عزل العرب عن تاريخهم ، وتعاونت على ذلك ظروف مختلفة : سياسية ودينية بالاضافة الى غزوات اجنبية متوالية وما تبع ذلك من افقار وتجهيل وتشويه للمفاهيم والقيم ، ولم يرتفع الذين امسكو بزمام الامور الى مستوى الحوادث والظروف ، فكيف بهم يرتفعون – كما يجب على كل من يتصدى للقيادة في اي ظرف او زمان – الى مستوى فهم التطور التاريخي للعالم المحيط بهم واتجاه القوى المتصارعة فيه . ولم يمض وقت طويل حتى انفصل هؤلاء ايضا عن الشعب ، اي عن القدرات الخلاقة المتطورة... وهكذا تضافرت الظروف على فصل العرب عن منابع تاريخهم ومراميه ، عن بواعث الحركة الصحيحة لاستمرار وجودهم . فبدلا من ان يستقبلوا الحياة وما تستوجبه من تطور ولوها ظهورهم وأغرقوا في الاوهام ، وأطياف الجنة والتغذي بقصص البطولة . واصبح ما تعمر به مخيلاتهم من صور هذه البطولة « الورقية » مثارا لبعضهم ضد البعض الاخر شأنهم في ذلك شأن المجتمعات المغلقة التي تفقد اهدافها او تنساها ويتلبد احساسها بالظروف الخارجية المحيطة بها فتتجه – من اجل تصريف حيويتها – الى المنازعات الداخلية او الخلافات «الذهنية » الجوفاء . ولم يعد صحيحا اليوم ما كان يقال بالامس – تفسيرا لتأخر الشعب العربي – ان هذا الشعب اصبحت امكانياته اصغر من تاريخه وان اعباء هذا التاريخ العظيم اثقلت كاهله فبان عجزه ، كما ينوء الابن الخامل بتحمل عبقرية ابيه ويزداد تخاذلا ووهنا . بل على العكس يبدو مما تتكشف عنه الحوادث من امكانيات الشعب العربي وتفتح القيم النضالية والروحية فيه انه جدير بماضيه وان مستقبله – بعد ان اتسعت دائرة رسالته – في الزمان والمكان – سيكون اكبر من ماضيه العظيم .

***

لست اعني بالتاريخ الذي اقصده ، ذلك التسجيل المنهجي لسلسلة الحوادث والاحداث والمظاهر السياسية التي مرت بالبلاد العربية منذ اقدم العصور حتى اليوم . فمثل هذا يتوفر للقارىء في اكثر الكتب القديمة والحديثة، العربية – الاسلامية او الاجنبية . وانما اعني ذلك الذي يستطيع ان يفرق بين ما هو عارض ، دخيل ، مدسوس في حياة العرب وبين ما هو أصيل من اخلاقهم وقيمهم الروحية والفكرية وميثولجيتهم وآمالهم . وهذا النهج الجديد في كتابة التاريخ العربي مهمته اعادة الصلة بين الاجيال الناشئة وبين ماضيها حتى يستقيم انطلاقها الى المستقبل . والاجيال الناشئة تعيش في الحاضر والمستقبل او على الاصح انها الماضي الذي يعيش في المستقبل . ويكون هذا المستقبل – الذي توضحه الحاجات الدفينة في الاجيال بالتفاعل العميق مع ظروف العصر ومتطلباته – لقيطا اذا لم يجد جذوره في الماضي ومزيفا اذا لم يكن تجاوبا بعيد المدى مع روح الامة . ولذلك تصبح مهمة المؤرخ العربي الحديث الذي يعيش حياة الشعب العربي ببؤسها واشراقها ويأسها وآمالها ، تخطي جزئيات التاريخ العربي المعروفة وتجريد مقوماته على مستوى الفكر الحديث والمستقبل البعيد .

***

بعد انحسار العرب عن مسرح التوجيه الفعال والقيادة

العملية للتطور ومستلزمات التجدد في « الامبراطورية العربية ـ الاسلامية وزحف العناصر الدخيلة الى تولي الحكم باسم الاسلام اي باسم العرب ـ ومنذ ذلك الحين ـ بدأت تتسرب الى المجتمع العربي افكار وآراء شتى لم تتوالد ـ كما يظن ـ نتيجة لامتزاج الشعوب المدعوّة مع الشعب الداعي فحسب ، اذ ان الدعوّة الجديدة جاءت ضد واقع هذه الشعوب ومخلفاتها الفكرية والعقائدية واول ما كانت تهدف اليه هو اجتثاث تلك الافكار والمعتقدات من جذورها وتلقين القيم والمفاهيم العربية بالقدوة والسلوك وبالتالي استبدال نظرات تلك الشعوب الجزئية الى الكون والمجتمع الانساني بنظرة موحدة شاملة . وانما الواقع ان تلك الافكار والآراء «الجزئية » نبشت من خلايا مهملة في زوايا المجتمع الجديد او متآمرة ، ونفخ فيها خصيصا لاستعمالها وسائل تحطيم وتدمير ضد العقل العربي وشموله ومن اجل تفكيك روابط الروح العربية المهيمنة على المجتمع الجديد . وهكذا وبعد ان طفا على سطح المجتمع اشخاص تغاير روحهم روح العرب والاسلام في الاصل ، تشاء ظروف وسنة الخلق للرسالة العربية الا تستمر في تطورها : فبدلا من ان تمضي ـ كما كان في مقدورها ـ في تفاعلها مع المقتضيات المستجدة وتحافظ على دوام قيادتها بالافصاح المستمر والتعبير عن الحاجات الملحة قولا وعملا ، نظاما وتطبيقا ، فقد وقف بها جمود قادتها عند اشكال جافة وحبسوا حيويتها عن الحركة والتجدد او انحرفوا بها الى غير اهدافها ، بينما كانت الظروف الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية عامة تتبدل بسرعة فائقة فيتطلب هذا التبدل تلبية حاجات جديدة ملحة . عندئذ استطاع ذوو الاغراض السياسية واعداء الرسالة العربية اغراء جماهير الشعب بحلول وهمية من الزرادشتية والمانوية والمزدكية والاسرائيلية وبقايا الاراء الغريبة من قديم الحضارات وتمازجها . وبذلك تمكنوا من حل المجتمع العربي والاسلامي الواحد الى مجتمعات ذهنية مجزأة مختلفة تكاد تتباين في مظهرها وان كانت في حقيقتها واحدة وتنطوي في اعماقها على مسلمات واحدة .

ومن هنا جاء التناقض الفاضح بين ذهنية الفرق الباطنية والعقائدية والمذهبية المختلفة في المجتمع العربي من جهة وبين الواقع والحقيقة من جهة اخرى، بين ذهنية الجماهير السنية وبين حقيقة الاسلام وغايته . او بمعنى آخر بين منطق الاوهام والخرافات وبين منطق العقل المبني على الحقيقة سواء اكانت من حقائق الماضي ام الحاضر ، بحيث نستطيع القول ان هناك مستويين : مستوى جزئي ، خاص ، مقفل توالدت فيه الافكار الوهمية على مر الزمن ، ومستوى عام ، شامل ، مشترك . والمستوى الجزئي الخاص، مكتسب، وليد ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية تعاونت كلها على ايجاده واغنائه ، الا انه سطحي « غشائي » لانه وهمي لا يصمد امام المنطق السليم ولا امام الواقع ، لا يلبث ان يتبدد ويزول لمجرد التعلم . اما ذاك فانه مشترك بين جميع افراد الشعب العربي ، عميق في حياتهم وأصيل في نفوسهم لانه مرتبط بوجودهم : بأرضهم وسمائهم وتاريخهم .

فاذا نظرنا بمنطق المستوى الجزئي وتسلسل الافكار والمعتقدات الوهمية فيه وامتدادها ، لتأكدنا من ان النتيجة التي وصل اليها بذهنيته شخص كطه ابو الورد او داود ابو شقرا وغيرهما في جبل العلويين وفلسطين ومصر وشمال افريقيا ، هي نتيجة صحيحة وصادقة ايضا في اكثر الاحيان بالنسبة لمنطق ذلك المستوى الجزئي . ولكنها غير صحيحة بالنسبة لمنطق المستوى العام الشامل ، بل تصبح هذه الدعوات غريبة مستهجنة امام كل عقل يقظ ووجدان سليم . ولكن هذا لا يمنع من ان يكون للكذب منطقه الخاص الصادق وان لم يؤمن به او يصدقه كل الناس . وعلى عكس هذا نجد ان جميع افراد الشعب العربي يؤمنون بمفاهيم « المستوى العام » وقيمه الاخلاقية ونظرات واحدة للكون والحياة والدين ومواقف الرجولة .. او على الاقل يعترفون بأنها مشتركة تهز مشاعرهم ، وان الافصاح عنها او تجسدها في عمل من الاعمال الرائعة يوقظ فيهم الاعجاب .

فالتاريخ العربي الحديث الذي ندعو الى كتابته يجب اذا ان يهدف الى كشف « المستوى العام » وبعثه والى تسليط النور وحقائق العلم والعقل على « المستوى الخاص » .

***

ان للعرب خصائص ذاتية ونظرة روحية خاصة للحياة والكون القيت في قلوبهم وعقولهم على مر العصور ونتيجة لتفاعل طويل بين مختلف ظروف حياتهم مع بيئتهم من جهة ومع ما يتنسمونه من التيارات التي تهب عليهم في بلادهم او يتعرضون لها في تجوالهم وهجرتهم ، سواء منها الهجرات الكبرى ام الهجرات الفردية : خروجا بدوافع الاستهداء والمغامرة او العقيدة ام عودة الى الوطن الام تبرما ونفورا وحرصا على المشاعر الاخلاقية التي تنبع من ذاتيتهم بالاحتكاك مع الاوساط الحضارية الغريبة . وهذه «الدورة» الحضارية الكاملة التي تجسدت في تاريخ العرب في طريقين : طريق محمد وطريق ابراهيم ، كانت سببا من اسباب الخصب في تكامل خصائصهم الذاتية وغنى روحهم ومشاعرهم وتجلت في قدرة لغتهم على التعبير عن خلجات النفس والفكر .

وسواء اكانت هذه الخصائص من النوع الذي ينضوي تحت اسم « اساطير » ام كانت اخلاقية واجتماعية ونظرة الى الامور ، فان تقرير وجودها والكشف عنها لا يعني انها ثابتة لا تتغير وتتطور ، ولكنها لا تتناقض وانما تتجه في اتجاه واحد كالماضي في المستقبل او بمعنى آخر كرسالة ابراهيم

في الاسلام : انهما في اتجاه واحد وطريق صاعد الى غاية واحدة وان اختلف طريقهما بين الايجابية والسلبية ، مع فارق الزمن بينهما اي مقدار التطور ، وان الاسلام قفز ، عن زمانه ومكانه بالتعبير والافصاح، قرونا عديدة الى الامام .

ونحن العرب اليوم اذ نستيقظ ونقف في بداية الطريق المؤدية الى متابعة رسالتنا في تاريخ الوجود الانساني تتهددنا الاخطار الخارجية ، في صميم كياننا ، والجهل والعقل الخرافي الوهمي او العقائد او المذاهب الدخيلة في داخلنا، نحتاج الى من يكشف عن خصائص الشعب العربي بعقلية العصر الذي نعيش فيه اي بمستوى العقل العلمي المؤمن المتفاعل بصدق مع تيارات الفكر العالمي والذي يتمثل الماضي ويعي ظروف الحاضر ويدرك المستقبل ويبصر منطق اتجاهه. وعلى قدر ما يكون هذا الكشف عميقا محافظا على منطق الايمان بالخصائص العربية ومستوى ارتباطها بالحاضر والمستقبل تأتي قوة استجابة الشعب العربي في التحرر من العقل الوهمي والعقائد الدخيلة وبالتالي بقدر ما تتفجر قواه وامكانياته وابداعه لدفع الاخطار الخارجية ايضا . ذلك ان هذه الاخطار الخارجية التي تصوّب اليه من كل جهة ومن كل لون لاستغلال خيرات ارضه والقوى البشرية فيه او الاستفادة من موقع بلاده الستراتيجي او لغزو عقله وعواطفه ... ان هذه الاخطار ، يبدو من السهل ـ لاول وهلة ـ القضاء عليها او دفعها ، الا انها توجّه بدوافع عقائدية ونظرات اجتماعية او فلسفية او اقتصادية وقد اصبحت متميزة بينة الاتجاه وهي تكاد تكون على طرفي نقيض ـ في اتجاهاتها البعيدة على الاقل ونتائجها العملية ـ مع خصائص العرب الذاتية ونظرتهم الى الانسان والكون . ان العقل العربي كان حتى سنوات غافلا عن جميع تلك التيارات وهذه الاخطار وقد بدأ يتحسسها ويعيها ولهذا فانه يستجيب يوما بعد يوم لاتجاهات تنم عن حوافز استقلالية .

واذا كان الشعب العربي لم يصل كله بعد الى التفاعل، تفاعلا حيا بكامل الشخصية مع هذه الاخطار والتيارات ، فان طبقة المثقفين تمر اليوم بالنيابة عنه بمرحلة هذا التفاعل .. ومن اجدر ـ من بين هؤلاء ـ من المؤرخين للظفر بالنتائج الفكرية المطلوبة من هذا التفاعل اذ انهم من جهة يعيشون حياة الشعب العربي بحكم اهتمامهم ومهنتهم وخصائصه ويتمثلون نظرته ، ويعرف التيارات الفكرية العالمية ومرامي الاستعمار من جهة اخرى .

ان الظروف المحيطة بكيان العرب من الداخل والخارج تعطي هي نفسها ايضا معاني انعكاسية لما يجب ان تكون عليه اتجاهاتهم في المستقبل وتحتم مستوى لها . فبعد اتضاح معالم الحركة الصهيونية العالمية واهدافها لم تعد مشكلة العرب في التخلص من الاستعمار والرجعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الداخل او تجنب غزو المذاهب المختلفة فحسب ، حتى يحافظوا على وجودهم، وانما اصبح وجودهم كله يتوقف على يقظة شخصيتهم واكتمال نموها وانطلاقها انطلاقا حرا عفويا تاما حتى يصمدوا في وجه هذه الاخطار جميعها .

***

تاريخ العرب طويل . يمتد الى الوراء امتداد الزمن التاريخي ويصعد معه الى مراقي الانسانية . واذا كنا الان لا نستطيع توضيح كل مرامي الموجات العربية ودوافعها الا اننا نؤمن ـ على الاقل ـ بأنها كانت متكاملة ، تستحثها اهدافها الكامنة المتجددة التي تزداد غنى وشمولا للوصول الى المستوى الامثل . وكان التفكك ، والاختلاط بشعوب غريبة بين كل موجة وأخرى يزيد العرب نضجا ، والنضال في اعادة وحدتهم وتماسكهم يزيد من وضوح اهدافهم ، ويسمو بها الى التعبير عن الظروف المحيطة بالعرب ، والى تلبية حاجاتهم في المستقبل . وهكذا لم يكن «الاسلام» اكمل دعوة ، الا بعد ان استقامت لغتهم في حناجرهم واسماعهم واتضحت مفاهيمهم الاخلاقية الجديدة ونظرتهم الى الانسان والكون وارتفعوا اليها واتحدوا فيها . ولا يخشى عليهم من الفناء او الاضمحلال اذا تزاحمت نحوهم الاخطار وغزت ديارهم المعتقدات والآراء الغريبة واصبحت بلادهم مسرحا لها . بل على العكس فانه من طبيعة العرب انه كلما اشتد عليهم الهول انصرفوا الى سبر اغوار نفوسهم وقواهم ، وكلما طارت نفوسهم شعاعا من الفزع ، كلما استجمعوا ارادة الوجود فيهم واقتحموا الحياة الى اهدافهم . انهم لن يستجيبوا الا لما هو ذاتي اصيل في نفوسهم ، منسجم مع روحيتهم . فلقد علت اصوات كثيرة في الجاهلية تدعوهم من اجل كفاح التسلل اليهودي الذي وصل المدينة واصبح يهدد كعبتهم الى اعتناق عقائد فارسية وحبشية وبيزنطية وغيرها .. ولكنهم لم يستجيبوا الا للاسلام ، اي لدعوة انسانية ، اشمل ، واسمى وابعد هدفا من ذلك كله في حل مشاكل الانسان .

دمشق — **ذوقان قرقوط**

قريبا :

المصباح الازرق

قصة طويلة

تأليف

نبيل خوري

قدم لها : سعيد عقل

من كتب المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر